رسالة السلطان سليمان القانوني إلى حاكم البحرين

د. فيصل عبدالله الكندري *

من أهم العقبات التي تواجه الباحثين في العلاقات العثمانية بشبه الجزيرة العربية نقص المعلومات التاريخية، خصوصا وأن سلسلة الأحداث في الأرشيف العثماني الموجودة في أرشيف رئاسة الوزراء Basbakanilk Devlet Arsivleri تنتظم في دفاتر المهمة (مهمه دفترلري) في الفترة المتعلقة بالنصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي الى القرن التاسع عشر، لذا فإن المصادر العثمانية لا تخدم الباحثين كثيرا عن الفترة السابقة لذلك.

إن معظم الكتب التاريخية التي تناولت علاقة العثمانيين بالبحرين لم تذكر على وجه التحديد تاريخ أول اتصال تم بينهما، إلا أنه من خلال البحث في المصادر العثمانية القديمة تم العثور على رسالة بعث بها السلطان سليمان القانوني لحاكم البحرين مراد خان (أو ريس)، وهذه الرسالة موجودة في منشآت السلاطين التي كتبت من قبل فريدون بك [(١)]، الذي كان من كتاب السر في أيام الوزير الأعظم صقللي محمد باشا [(٢)]، ويقع الكتاب في جزئين، ويحتوي على مراسلات السلاطين

---

* مدرس قسم التاريخ ـ جامعة الكويت

١ ـ ترقى فريدون بك في المناصب حتى وصل إلى كتابة السر، توفى عام ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢، من أهم المؤلفات التي تركها: نزهة الأخبار وهي تتعلق بمعركة سكتوار، كما كتب رسالة في الأخلاق عرفت باسم مفتاح جنت (أي مفتاح الجنة) (لمزيد من المعلومات انظر: بروسه لي محمد طاهر، عثمانلي مؤلفلري، جـ ٢، (استانبول، ١٣٣٣) ص ٣٦٤)

٢ ـ يعتبر صقللي محمد باشا من أهم الوزراء الذين تولوا الصدارة العظمى أيام السلطان سليمان القانوني، فصار وزيرا أعظم في عام ٩٧٢ هـ/ ١٥٦٤م، وشارك الوزير السلطان سليمان في اثناء حملته الأخيرة لحصار مدينة سكتوار Szeged عام ٩٧٤ هـ / ١٥٦٦م، في أثناء الحصار توفى السلطان، فأخفى خبر موته حتى لا يضعف عزم المسلمين عن القتال في المعركة، وأرسل الوزير خلفه ولده سليم الثاني يخبره بالأمر، وانتصر العثمانيون في المعركة. (لمزيد من المعلومات انظر: قطب الدين النهروالي، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، (بيروت، بدون تاريخ [ب . ت] ص ٣٠٥ـ٣٠٦ و ٣٢٤ـ٣٢٨).

العثمانيين الى غيرهم من سلاطين الدول المجاورة، فضلا عن حكام الولايات والمدن في الدولة العثمانية، وقد كتبت معظم مراسلات السلاطين العثمانيين باللغة العثمانية، إلا أن بعضا منها كتب باللغة العربية وهي التي أرسلت إلى حكام العالم العربي، كما أن هناك بعض المراسلات باللغة الفارسية لحكام بلاد فارس، كما تضمن الكتاب إشارات مختصرة لأهم الحوادث في عهد كل سلطان.

وتعتبر هذة الرسالة على درجة كبيرة من الأهمية، حيث لم يسبق لأحد من الباحثين العرب أو الأجانب الاشارة إليها رغم المعلومات الهامة التي تحويها، لذا فإن هذه الرسالة ظلت منسية، ولم تصلها يد الباحثين منذ أن نشر كتاب فريدون بك في عام ١٢٧٤هـ / ١٨٥٧م.

وهذه الرسالة كتبت باللغة العربية وأرسلت من قبل السلطان العثماني سليمان القانوني لحاكم البحرين، فهي بذلك تعتبر وثيقة عثمانية رسمية تدل دلالة واضحة على تبعية البحرين للدولة العثمانية.

لقد أشارت الوثائق العثمانية الى ورود خطابات عديدة من مراد ريس حاكم البحرين الى السلطان العثماني [٣]، ولكن مع شديد الأسف لم يعثر على أي من تلك الخطابات، كما أشارت الوثائق العثمانية الى إرسال رسالة من السلطان سليمان القانوني لحاكم البحرين [٤]، وكان ذلك حافزا لتكثيف البحث من أجل الوصول إلى تلك الرسالة، واستمر البحث حتى تم العثور عليها مطبوعة في الجزء الأول من كتاب فريدون بك المشار إليه، ولمعالجة هذا الموضوع سيتطرق البحث للمسائل التالية: أولا العلاقات العثمانية بجزيرة البحرين والظروف التي دفعت مراد ريس للاستنجاد بالسلطان العثماني.

---

٣ ـ مهمة دفتري رقم ٣، ص ١٣٩، وثيقة رقم ١.
٤ ـ المصدر السابق، نفس الصفحة والوثيقة.

ثانيا: نشر نص رسالة السلطان سليمان القانوني إلى مراد حاكم البحرين.

ثالثا: أهم ما جاء في الرسالة المذكورة.

البرتغاليون والخليج العربي

بعد اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح عام ١٤٨٨م، تمكنوا بعدها بسنوات قليلة من الوصول للهند، ثم فكروا بعدها باقامة مستوطنات لهم في الشرق للسيطرة على تجارة التوابل، لذا أرسلوا العديد من الحملات لهذه الغاية، وفي عام ٩١٢هـ/ ١٥٠٦م أرسل أسطول للشرق تحت قيادة ترستو دا كونها Tristao da Cunha [٥]، والبوكيرك Albuquerque [٦] اللذان بدءا أعمالهما عند موزمبيق Mozambique، ثم احتلا الساحل الغربي من مدغشقر Madagascar، ومن هناك سارا باتجاه الشمال محتلين العديد من المدن الساحلية الافريقية مثل مقديشو Mogadishu التي كانت تعتبر واحدة من أغنى وأقوى مدن ساحل أفريقيا الشرقي، ثم احتلت سوقطرة Socotra في ذي الحجة من عام ٩١٢هـ/ ١٥٠٧م، وبنيت قلعة وحرست لتكون قاعدة للحملات البحرية في البحر الأحمر [٧]، ولم يأت عام ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م إلا وكان البرتغاليون قد مدوا سيطرتهم على كل ساحل أفريقيا الشرقي، ما عدا مالندي Malindi التي تمتعت بامتياز خاص كحليف مستقل للبرتغاليين وبعد النجاح في هذه المهمة سلك كل من البوكيرك ودي كونها طريقا مختلفا، فاتجه دي كونها الى الهند حيث

---

٥ ـ عين ترستو أول قائد عام للهند، إلا أنه بسبب العمى المؤقت الذي أصابه قبيل الابحار فإن المنصب قد انتقل الى الميدا. انظر:

Henry Hart, Sea Road to the Indies (Norwich, 1952), p243

٦ ـ افونسو دي البوكيرك هو ثاني أولاد كونسالو دي البوكيرك، ولد عام ٨٥٧/ ١٤٥٣ في قرية الهاندرا Alhandra القريبة من لشبونة، ودرس في قصر الملك افونسو الخامس D. Affonso V، وذهب للشرق للمرة الأولى عام ٩١٠/ ١٥٠٣ انظر:

Albuquerque, Commenlaries, Vol. ـ ٧
xxxvii f. (London, 1875) p. 53 - 54.

حمل سفنه بالبهـارات وعاد مبحرا الى البرتغال، بينما أبحـر البـوكيرك باتجاه الخليـج العربي [٨]، ورسا عنـد رأس الحد حيث أحـرق أكثر مـن ٣٠ سفينة مـن سفن الصيـد العاملة من منطقة والتابعة لهرمز وعدة موانى أخرى، كما قام بتحطيم كل سفينة واجهته في أثناء سيره إلى قلهات على الساحل العماني، والتي أظهر أهلها استعدادهم لأن يكونوا تابعين لملـك البرتغال، كما تزود بما يحتـاج إليه ثم سـار إلى قريـات التي هاجمهـا وسيطر عليهـا ثم قـام بحرق المدينـة بعد نهب خيراتها كما احـرق ١٣ سفينة كـانت راسيـة في مينائها، وسار بعدها إلى مسقط حيث توجـه إليه رجلان من نبلائها وأعلنوا عن قبولهم لأن يكونوا تـابعين للتاج البرتغالي، ولدفـع الضريبة التي كانـوا يدفعونها لملك هـرمز، وعندمـا لاحظ البـوكيرك أن أهالي مسقـط يقومـون ببعض الاستعـدادت للدفـاع عن المدينة، شرع في قصف المدينة بالمدافع، فقاومه الأهـالي بشجاعة، ولكن الشجاعة لم تمنع وصول القذائف للمـدينة، مما اضطرهم لـلاستسلام. وطلبوا من البـوكيرك عدم حرق المدينة، فوافق على ذلك شريطة دفع مبلغ من المال على أن يصله ذلك المبلغ مع ظهر يوم الغد، ولما لم يصلـه المال في الموعد المحدد، قام بحـرق المدينة بما في ذلك الجامـع والسفن الراسية في الميناء، وقام بإطلاق سراح بعض الأسرى من الذين كان قد أسرهم في وقت سابـق، بعد أن قطـع آذانهم وأنوفهم، وقـام البوكيرك أخيرا بنهـب المدينة، وتـوجه إلى صحار التـي هجرهـا أهلها باستثنـاء بعض الموظفين الذيـن سلموا المكـان للبوكيرك، وقبلوا بـأن يقدموا الضريبـة التي كانوا يـدفعونها لملك هـرمز لملك البرتغـال. وواصل البوكيرك طريقة حتى وصل إلى خورفكان، وبسبـب المقاومة التي قام بها أهلها في وجه البرتغاليين قام البوكيرك بحرق المدينة وقطع آذان وأنوف الأسرى[٩].

وأبحر بعدها متـوجها الى هرمز حيث استدعى سلطـانها وحاكمها وطلب

٨ـ R.B.SERJEANT, THE PORTUGUESE Of SOUTH ARABIAN COAST,(OXFORD, 1963) P15

٩ـ Albuquerque, Commentaries, Vol I , P 101;WILSON, THE PERSIAN GULF, 3RD ED [London,1959] p 115

منهما بأن يكونوا تابعين للبرتغال، وتمكن البوكيرك من إيقاع هزيمة سهلة بهم بعد رفضهم لما عرضه عليهم، وفي جمادي الأولى ٩١٣ هـ/ سبتمبر ١٥٠٧م وقعت معاهدة بين الطرفين على أن يكون سلطان هرمز تابعا للتاج البرتغالي، ولم يكن بعض قادة البوكيرك مسرورين من البقاء في الجزيرة وأعلنوا العصيان، وأراد البوكيرك أن يتخلص منهم، إلا أن أربعة منهم فروا إلى خواجة عطار الذي رفض تسليمهم للبوكيرك، مما دفع البوكيرك لأن يحاصر الجزيرة، ورغب العصاة من البرتغاليين في أن يرفعوا أمرهم إلى الميدا، الحاكم البرتغالي العام للهند، والمقيم في مدينة كوجين Cochin، وهنا اضطر البوكيرك لأن يترك هرمز وأن يذهب إلى الهند، وهناك طلب البوكيرك من الميدا بأن يتنحى عن المنصب، وأن يعطيه إياه، ووقع خلاف بين الاثنين على نيابة الهند، ورفع هذا النزاع إلى البرتغال للبت فيه.

وكان البوكيرك عندما جاء إلى الشرق عام ٩١٢هـ/ ١٥٠٦م يحمل معه أمرا ملكيا بتعيينه نائبا عاما للهند، وكان قد أخفى الأمر حينا من الزمن [١٠]، وعندما ظهر النزاع المذكور أفشى البوكيرك الأمر، لذلك أخذ البوكيرك مكان الميدا وعمل نائبا للهند في الفترة ما بين ٩١٥ ـ ٩٢١ هـ/ ١٥٠٩ ـ ١٥١٥م.

وخلال الفترة الثانية ـ كنائب للهند ـ انتهج البوكيرك سياسة جديدة بنيت على أساس تقوية أقدام البرتغاليين في الشرق، ومن أجل السيطرة على تجارة الشرق. فقد اتجه البوكيرك لاحتلال أهم مضايق الشرق، من أجل الارتقاء بشأن البرتغاليين للوصول إلى درجة السيادة البحرية، ومن أجل تأمينهم من نزوات القوات المحلية، ولتحقيق هذه الغاية كان لا بد له من السيطرة على أهم مضايق الشرق للتحكم في حركة التجارة، وأهمها ملقا والبحر الأحمر ومضيق هرمز، إلا

١٠ـ J.G LORIMER, GAZETTEER OF THE PERSIAN GULF,(CALCUTTA, 1915), 1,i,P3

أنه قبـل القيام بـذلك لاحظ البـوكيرك أن موضـع مدينـة كوجين Cochin التي كانت محل إقـامة الميدا الأساسيـة، لا تعطي أساطيلهم مـواضع استراتيجية، لأنها تقع في جنوب غرب الساحل الهندي، وفكـر في إيجاد بديل لها، فوقعت أنظاره على مدينة كوة Goa التي تتوسط الساحل الغربي للهند أو ساحل مليبار، وكانت كوة تابعة للملكة بيجابور Bijapur، لذا فقد احتلها عام ٩١٦ هـ/ ١٥١٠م.

أما ملقـا Malaca التي هـي واحدة مـن أهم المواضـع لاحتكار التجـارة القـادمة مـن الصين وجزر البهـارات Spice Island فقـد خضعت للسيطـرة البرتغالية عام ٩١٧ / ١٥١١م [١١]. أما عدن فتمتاز بموقعها الفريد للسيطرة على مداخل البحـر الأحمر الجنوبية، وفشلت محاولة البوكيرك للسيطـرة على هذه المدينة عـام ٩١٩ هـ/ ١٥١٣م وكـانـت هرمـز هـي المحطـة الأخيرة للبوكيرك. وكـان حاكمهـا قد قبـل السيادة البرتغـالية عـام ٩١٣ هـ/ ١٥٠٧م، ولكـن البوكيرك لم ينجز خططه هناك بسبب الخلاف الذي نشـب بينه وبين بعض ضباطه آنذاك، وفي محرم ٩٢١ هـ/ فبراير ١٥١٥م أبحر البوكيرك لهرمز بـرفقة أسطول كبير، وكانت الجزيرة بحـالة ثـورة ضد الحاكـم الفارسي الذي قتـل سلفه، لـذلك لم تكـن هناك حاجة لعمليات حربية من أجل استعادة الجزيرة.

وبهذا أوجد البوكيرك سيطرة برتغالية على طرق التجارة الشرقية في المحيط الهندي [١٢]، كما أنشأ في الوقت نفسه إمبراطورية استعمارية [١٣].

لقد سيطـر البرتغاليـون على جزيـرة البحريـن في العقد الثـالث مـن القرن

١١ـ Albuquerque, Commentaries, Voll Iii No Lxii, P101 - 131-

١٢ـ Lorimer, Gazetteer, I,i,p4

١٣ ـ لمزيد من المعلومات حول نشاط البرتغاليين في الشرق انظر
Faisal Alkanderi , The Ottomans And The Gulf
In The Mid - Sixteenth Century, Ph.d. Thesis, University Of Manchester,1992, PP47 - 62.

السادس عشر الميلادي، فدفع ذلك أهالي البحرين لتتطلع إلى العثمانيين القوة الإسلامية الوحيدة البارزة في المنطقة لمساعدتهم، ولاسيما بعد سيطرة العثمانيين على القطيف والإحساء [١٤]، في النصف الثاني من القرن المذكور. وفي ربيع الأول عام ٩٥٩ هـ/ يناير ١٥٥٢م أرسل أفونسو دي نورنها Afonso de Noronha الحاكم البرتغالي العام للهند، رسالة إلى ملك البرتغال يخبره بأن عرب البحرين ينوون تسليم الجزيرة للعثمانيين [١٥].

المجابهات العثمانية البرتغالية في الخليج العربي.

١ ـ حملة بيري ريس [١٦]:

في عام ١٥١٧م ضم العثمانيون مصر والحجاز، كما سيطروا على اليمن، وأوجدوا لأنفسهم ميناء آخر بالاضافة لميناء السويس وهو ميناء عدن في عام ١٥٣٨، وكان عليهم أن يمنعوا البرتغاليين من التغلغل في البحر الأحمر، لذا فقد تمتعت اليمن بأهمية استراتيجية كبيرة عند العثمانيين إذا ما أرادوا حماية ميناءهم الرئيسي في السويس.

إن دخول العثمانيين منطقة الخليج العربي في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي، جعلهم يقفون وجها لوجه مع البرتغاليين الذين سيطروا على المنطقة منذ عام ١٥٠٧م، وفي عام ١٥٥٠ ـ ١٥٥١ زاد النشاط البرتغالي في

١٤ ـ سيطر العثمانيون على مدينة القطيف في النصف الثاني من القرن السادس عشر، عندما استرد عرب القطيف المدينة من البرتغاليين وسلموها للعثمانيين في عام ٩٥٧ هـ/ ١٥٥٠م، أما الإحساء فليس هناك معلومات واضحة توضح تاريخ دخول العثمانيين إليها. ويعتقد بأن العثمانيين قد احتلوا الإحساء في أوائل عام ٩٥٩ هـ/ ١٥٥٢م لمزيد من المعلومات انظر: ibid,pp103 - 105-

١٥ ـ مجموعة أبو ظبي، Antt,cc 1 - 87 - 71-

١٦ ـ كان بيري ريس ملاحا وعالما وجغرافيا مشهورا، وتعتبر فترة حياته من عام ٩٣١ـ ٩٤٥ هـ/ ١٥٢٥ ـ ١٥٤٧م لا تزال مجهولة، ترك كتابا في البحرية عرف باسم: «البحرية» وصف فيه البحر المتوسط. انظر: كاتب جلبي. تحفة الكبار في أسفار البحار (استانبول، ١٣٢٩) ص ٦١ ـ ٦٢؛ Cengis Orhonlu “Hind Kaptanligi Ve Piri Reis”, Belleten, xxxxIV (1970), P236

منطقة الخليج، وقـاموا بمحاولات لوقف التغلغل العثماني في المنطقـة، كما حاولوا طرد العثمانيين من المناطق التي وطئوها، فقد خربوا القطيف والإحساء، كما أقاموا عـلاقات مـع شيوخ القبـائل العـربية المنـاوئة للحكم العثماني في أطـراف البصرة، وأخذوا يشجعونهم على الوقوف في وجه العثمانيين [١٧]، كل هذه العوامل دفعت العثمانيين إلى تجهيز حملة ضـد البرتغاليين في الخليج، لذلـك خرج بيرس ريس على رأس حملة مكـونة مـن ٣٠ سفينة عليهـا ٨٥٠ شخص عـام ٩٥٩ هـ/ ١٥٥٢م، وقد زود بأوامـر للسيطرة على هرمز، وإذا سـارت الأمور حسب الخطة، يـواصل سيره لـلإستيلاء على البحـريـن، يذهـب منهـا إلى البصرة التي كـانـت تعاني مـن اضطرابـات العرب المستمـرة، وعليه أن يقضي الشتـاء هناك، وأن يبقـي ١٠ سفن هناك إذا دعت الضرورة، وأن يرجع بالباقي إلى مصر [١٨].

أما البرتغاليـون فقد كانوا على علم بـالاستعدادات العثمانية [١٩]، لذا أرسل حاكم هرمز دي الفارادا نورنها D. Alvarada Noronha أحد قواده لمراقبة الأسطول العثماني من الشواطىء المحيطة بالخليج العربي في جمادي الآخرة ٩٥٩ هـ/ مايو ١٥٥٢م [٢٠].

وعبر بيري ريـس مضيق بـاب المندب بـاتجاه الشحـر، وخسر هناك بعـض السفن بسبب سـوء الأحوال الجوية [٢١]، وفي أغسطس أرسل خمس سفـن بقيادة

١٧ - SALIH OZBARAN, "OSMANLY IMPARATORLUGU VE HINIDISTAN YOLLU" TARIH DERGISI (TD), XXXI (1977) P123 - 124-.

١٨ - KOGUSLAR, 888, 487B - 488A

١٩ - هناك وثيقة برتغالية يرجع تاريخها إلى ١ رمضان ٩٥٩ هـ/ ٢٠ أغسطس ١٥٥٢م تشير إلى الاستعدادت التي تمت في القاهرة لتجهيز حملة، وتقول بوجود ١٣ سفينة في السويس و ١٣ أخرى في القاهرة، وقد تسلم والي القاهرة تعليمات لبناء ٦٠ سفينة أخرى، كما أرسل إلى العـاصمة استانبول طالبا أسلحة ومؤونـة والبحارة اللازمين للسفن المذكورة.
(انظر: مجموعة أبو ظبي، (ANTT,CC,III - 17 - 37)

٢٠ - SALIH OZBARAN, OTTOMAN TURKS AND THE PORTUGUESE IN THE PERSIAN GULF, PH.D. THESIS, UNIVERSITY OF LONDON, OCTOBER 1969 , P50

٢١ - علي ريس، مرآت الممالك، ص ١٢ - ١٣

ابنه محمد الـذي تقدم إلى خليج عمان، فوصـل مسقط وحاصرها، كما قـام بقصف المدينة، تلك القلعة التي امتلكها البرتغاليون منذ عام ٩١٣ هـ / ١٥٠٧م لمدة ستة أيام، وفي اليـوم السابع من الحصـار، وصل بيري ريس إلى مسقط، فقـرر جوا دي لسبوا Joao de Lisboa قائد الحامية البرتغاليـة في مسقط، والـذي كان قـد أرسل إلى هنـاك لبناء قلعة فيهـا، تسليمها للعثمانيين [٢٢]، وأخذ العثمانيـون ١٢٠ برتغاليا أسرى للعمـل كمجدفين في أسطولهم [٢٣]، ولم يحتفظ بيري ريس بالقلعة لأنه لم يكـن لديه العدد الكـافي من الجنود ليتركهـم في القلعة، بالاضافـة إلى قرب مسقط مـن هرمز التـي كانت قاعـدة البرتغاليين في الخليج، وبعـدها عن الـولاية العثمانية سـواء كانت الاحسـاء أو البصرة، لذلك أخـذ كل مـا هو مفيد منهـا، ثم هدمها وتركها متوجها إلى هرمز [٢٤].

كان نورنها القـائد البرتغالي لهرمز على علم تام بتحـركات العثمانيين، وأخذ احتياطاته الكافيـة للمقاومة، فكان لديه ٩٠٠ شخص بالاضـافة إلى مؤونة تكفي لحصار طويل، وأرسـل القائد البرتغالي طالبا المدد من كـوة عاصمة البرتغاليين في الشرق [٢٥].

وصل بيري ريـس إلى هرمز ب ٢٨ سفينة وعلى متنهـا ٨٥٠ جندي [٢٦]،

---

٢٢ ـ Koguslar, 888, 487b ؛ ويقول ولسون نقلا عـن فاريا سوسا بأن بـرتغالي المدينة قد قاموا قـرابة شهر من الزمان (انظر: -A.T.WILSON, PERSIAN GULF, 3D ED. (LONDON, 1959) P 125)
ويتفق أوزباران مع ذلك (انظر: OZBARAN, OTTOMAN ,TURKS, P51,118) .

٢٣ ـ Koguslar, 888, 487b ؛ تقول المصادر البرتغالية بأن لبسوا LISBOA استسلم بشرط أن يسمح بيري ريس للحامية البرتغاليـة والمكونة من ٦٠ شخصا بالمغادرة بحـرية إلى ميناء هرمز، إلا بيري ريس لم يلتـزم بذلك، وأخل بالشرط بـأن جعل الكـابتن و ٦٠ آخرون يعملـون كمجدفين، إلا أن الـوثائق العثمانية لا تـذكر أي شيء عـن هذا الشرط، وتضيف تلك الـوثائق بأن عدد الأسرى بلغ ١٢٠ وليس ٦٠ بـرتغاليا. (من أجل رأي المصـادر البرتغالية انظر: -WILSON, PERSIAN GULF P 125 ,OZBARAN, OTTOMAN TURKS, P51,52

٢٤ـ CENGIZ ORHONLU, "HIND KAPTANLIGI " .,P243.

٢٥ـ WILSON, PERSIAN GULF P 125

٢٦ـ Koguslar, 888, 487

وحاصرها في سبتمبر، فقام نـورنها بإخطار النائب العام للهند عـن هذه المحاولة، وسعى للحصول على دعـم من هناك ليصمد في وجه مدافـع بيري ريس، واستمر الحصار حـوالي عشرين يـوما، وفي النهـاية لم يتمكـن العثمانيون مـن أخذ المدينـة، وهنـاك خشي بيرس ريس مـن وصول المدد البرتغـالي في أي لحظة ويحاصره أثنـاء انشغاله بحصار جزيرة هرمز (٢٧) كما أن أمواله قد نفذت، ولم يكـن لديه الأموال الكافية لدفع علـوفه (مرتبات) الجند (٢٨)، لذلك رفع الحصـار متجها إلى جزيرة قشم، التي لم تظهـر أي مقاومة في وجهه، فنهب المدينـة، واتجه إلى البصرة فوصلها في ذي القعدة ٩٥٩ هـ/ اكتوبـر ١٥٥٢ م (٢٩)، ثـم علم بـوصول مـدد برتغـالي لجزيرة هرمز (٣٠)، مما يدل على أن خروجـه من هرمز كان في الوقـت المناسب. أما النائب العـام للهندعنـدما علم بـأن الخطر يتهدد قـاعدة البرتغـاليين في الخليج، لم يضيـع أي وقت وإنما قـام من فـوره بإرسـال أسطول كبير، وقـرر أن يتولى قيـادة الأسطول بنفسـه، لكنه عنـدما وصل الى مـدينة ديـو، علم بـأن الاسطول العثماني أبحر للبصرة، وهنـا عين ابن أخته قائدا لـلأسطول المكون مـن ١٢ سفينة كبيرة و ٢٨ سفينة صغيرة ولما وصل الأسطول إلى هرمـز علموا أن الخطر العثماني قد ابتعد عن الجزيرة (٣١).

وهنا خشي بيري ريس من أن البرتغاليين قد يقطعون عليه خط الرجعة. وزاد دي لسبوا Lisboa (٣٢) . مـن مخاوف بيري ريـس من أنـه إذا تـربـص

٢٧ـ C . Orhonlu, "hind Kaptanligi", P244

٢٨ـ koguslar, 888, 487b, 488a,488b, 489a

٢٩ـ c. Orhonlu, "hind Kaptanligi P244 ؛ قبيل الابحار إلى البصرة أرسل بيري ريس رسالة مع ابنه محمد إلى قباد بـاشا، أمير أمراء البصرة، أخبره فيهـا بيري ريس عن استيلائه على مسقـط وذهابه لهرمـز. (انظر: koguslar, 888, 487b)

٣٠ـ كاتب جلبي، تحفة الكبار في أسفار البحار (استانبول، ١٣٢٩) ص ٦١

٣١ـ C. Orhonlu, "hind Kaptanligi P244

٣٢ـ احتفظ بيري ريس به كخبير ربما بشؤون الخليج العربي. (انظر كاتب جلبي، المصدر السابق، نفس الصفحة)

البرتغـاليون بمضيـق هـرمـز، فلن يتمكـن مـن إيصـال الأسطول بسـلام إلى السويس فتشـاور بيري ريس مع قباد بـاشا، أمير أمراء البصرة (٣٣)، وقرر بأن يأخذ ثلاث سفن فقط، ويرجـع بها إلى السويس وبهذه السفن تمكن من الفرار من البرتغـاليين، إلا أن إحدى سفنـه تحطمت عنـد سواحـل البحريـن (٣٤)، ووصـل إلى ميناء السـويـس بسفينتين فقــط، وعنـد وصـول بيري ريـس إلى القاهرة، سجنـه داوود باشا والى مصر (٣٥)، على اعتبار أن بيري ريس كان هو قبطان السويس ، فهو المسئول رسميا عن الأسطول الذي كان بحوزته، فكيف يغادر بيري ريس ساحة المعركة، تاركا الأسطول وراءه في البصرة، وقام داوود بـاشا بـإخطـار العاصمـة استـانبـول بحقيقة الموقـف، ثـم تلقى تعليمات مـن العاصمـة بإعدام بيري ريـس، حيث اتهم بالخيانـة، لأنه فر مـن المعركة تـاركا السفن التـي كانـت تحت مسئوليته ورجـع دونها إلى القاهـرة ولهذا أعدم بيري ريس في القاهرة عام ٩٦١هـ/ ١٥٥٤م (٣٦).

٢ ـ حملة مراد ريس:

منحت الـدولة العثمانية لقـب مصر قوداني (٣٧) (قبطان مصر) لمراد ريس، الذي كان سنجـاق بك (أميرا) على القطيف، وكانـت مهمته تنحصر في السفر إلى البصرة لإرجاع الأسطول إلى القاهرة، وخرج مـراد ريس ب ١٧ سفينة تاركا ثمان سفن أخرى في البصرة (٣٨).

٣٣ـ C. ORHONLU, "HIND KAPTANLIGI", P245

٣٤ـ علي ريس، مرآت الممالك (استانبول، ١٣١٣) ص ١٣

٣٥ـ كاتب جلبي، تحفة الكبار ، ص ٦١

٣٦ـ ابراهيم بجوي، تاريخ بجوي، جـ١ (استانبول،١٩٨٠) ص١٨٨؛
C. ORHONLU, "HIND KAPTANLIGI", P245 -246

٣٧ـ OZBARAN, OTTOMAN TURKS, P51,56

٣٨ـ علي ريس، مـرآت الممالك، ص ١٣. يقول علي ريس بأن احـدى السفن احترقت في البصرة، مما قـد يعني بأن بيري ريس فقد سفينتين إما في هرمز أو في طريقه للبصرة.

أما البرتغاليون فقد أرسلوا أحد بحارتهم إلى شط العرب لجمع المعلومات عن الأسطول العثماني، فعلموا بأن حملة مراد ريس على وشك الإبحار [٣٩]، وكمن البرتغاليون للأسطول العثماني في مضيق هرمز، ودارت معركة حامية بين الطرفين، خسر فيها العثمانيون قبطانين مشهورين هما رجب وسليمان ريس، وفقدوا أعداد كبيرة من مقاتليهم، كما جرح عدد كبير منهم، وحطم البرتغاليون عددا من السفن العثمانية [٤٠]، لذا قرر مراد ريس العودة إلى البصرة. وأرسل تقريرا عن هذه الرحلة إلى استانبول [٤١].

٣ ـ مغامرة سيدي علي ريس:

عندما فشلت جهود مراد ريس، كانت الإدارة العثمانية ماتزال حريصة على عودة السفن الى السويس، لذا احتل سيدي علي ريس مكان مراد ريس، وأوكل بنفس المهمة، وسيدي علي ريس [٤٢] هو أحد البحارة المشهورين الذين شاركوا في حملات عديدة في البحر المتوسط، وقد حاز شهرة كبيرة كبحار ماهر، وعين علي ريس مصر قبوداني (قبطان مصر) في أواخر ذي الحجة ٩٦٠ هـ / نوفمبر ١٥٥٣م [٤٣] ووصل إلى البصرة في فبراير ١٥٥٤م.

وقبيل إبحار علي ريس أرسل بكلر بك (أمير الأمراء) البصرة مصطفى

٣٩ ـ ÓZBARAN, OTTOMAN TURKS, P51,57
٤٠ ـ علي ريس، مرآت المالك، ص ١٣ كاتب جلبي، تحفة الكبار ،ص ٦٢
٤١ ـ كاتب جلبي، تحفة الكبار، ص ٦٢
٤٢ ـ وهو علي بن حسين، ويعرف أيضا باسم كاتب رومي وقد شارك في الحملة التي قادها السلطان سليمان القانوني ضد جزيرة رودس كما قاتل علي ريس تحت إمرة قادة مشهورين من أمثال خير الدين بربروسا وسنان باشا وغيرهم العديدين في البحر الأبيض المتوسط. ترك علي ريس العديد من الكتب في الفلك والحكمة. وعلم البحار. وقد خدم أباه وجده من قبله في ترسانة مدينة غلطة المجاورة لاستانبول. ويبدو أنه ورث مهارتهم واستفاد كثيرا من خبرتهم. (انظر: علي ريس، مرآت المالك، ص١٤) ومن أشهر كتبه: المحيط، الذي يتعلق بالمحيط الهندي ومرآت الكائنات ـ والمتعلق بعلوم الاسطرلاب، والفتحية. (انظر: كاتب جلبي، تحفة الكبار، ص ٦٢؛ بجوي تاريخي، جـ١، ص ١٩٨)
٤٣ ـ علي ريس، مرآت المالك، ص ١٤

باشا [٤٤] أحد الأشخاص الماهرين بالبحر [٤٥] ليستكشف الطريق، وليجمع معلومات عن الأسطول البرتغالي، وبعد شهر واحد عاد الشخص وأخبر بوجود أربع سفن برتغالية فقط في الخليج، وعليه خرج علي ريس من البصرة ب ١٥ سفينة [٤٦] في ١ شعبان ٩٦١ هـ/ ٢ يوليو ١٥٥٤م، وسار برفقته الشريف ـ الذي أرسل آنفا لجمع معلومات عن البرتغاليين ـ حتى وصلوا إلى هرمز، ثم رجع الشريف إلى البصرة [٤٧].

كان البرتغاليون على علم بإبحار أسطول علي ريس لذلك جهزوا سفنهم وزودوها بالذخيرة، وانتظروا الأسطول العثماني في رأس مسندم عند خورفكان بخمس وعشرين سفينة [٤٨]، وفي ١٠ رمضان ٩٦١ هـ/ أغسطس عام ١٥٥٤م دارت معركة من أقوى المعارك البحرية بين الجيشين، وتمكنت المدفعية العثمانية من إغراق سفينة برتغالية، وتراجع البرتغاليون إلى احدى قواعدهم [٤٩]، وتوجه العثمانيون إلى خورفكان حيث تزودوا بالماء.

وبعد سبعة أيام وصلوا إلى مسقط، وهنا ظهر الأسطول البرتغالي من جديد إلا أنه تكون هذه المرة من ٣٤ سفينة، وتقابل الفريقان، وعانى كلاهما من خسائر فادحة. واضطر الأسطول العثماني لأن يرسو في إحدى المناطق القريبة، وتوجه بعض الأمراء وحوالي ٢٠٠ جندي إلى الشاطىء طلبا للمساعدة، فجاءت أعداد كبيرة من العرب لنجدة العثمانيين المسلمين [٥٠]، ودارت معركة حامية بين الطرفين

---

٤٤ ـ لقد خلف مصطفى باشا قباد باشا المذكور آنفا.

٤٥ ـ كان هذا الشخص أحد الأشراف الماهرين بعلوم البحار. (علي ريس، مرآت الممالك، ص ١٤) وقد أخطأ البروفسور صالح أوزبران حين قال بأنه أحد العجم من بلاد فارس واسمه ماهر شريف. (OZBARAN, OTTOMAN TURKS, P59,N59

٤٦ ـ عند وصول علي ريس للبصرة، سلمه مصطفى باشا خمس عشرة سفينة باقية كانت بحالة يرثى لها، لذا قام بإصلاح السفن وزودها بالأسلحة لتصبح جاهزة للابحار. (انظر: علي ريس، مرآت الممالك، ص ١٦)

٤٧ ـ المصدر السابق، ص ١٨ ـ ١٩

٤٨ ـ OZBARAN, OTTOMAN TURKS, P127

٤٩ ـ OZBARAN, "OSMANLY IMPARATULUGU" ,P172

٥٠ ـ علي ريس مرآت الممالك، ص ٢١؛ كاتب جلبي، تحفة الكبار، ص ٦٤؛ C. ORHONLU, "SEYDI ALI RIES", TED,I,(1970) P46

ووصفها علي ريس بأنها واحدة من أعظم معارك خير الدين بربروسا [٥١]، وخسر العثمانيون المعركة، ومن أجل المحافظة على تسع السفن الباقية معه سار علي ريس بمحاذاة ساحل خليج عمان [٥٢] إلا أن الرياح ابعدته عن الساحل العربي في المياه المفتوحه، ليصل اخيرا ميناء جسك [٥٣] في إقليم كرمان، ووصل بعدها إلى ميناء جوادر في إقليم بلوشستان، وتزود بمؤونة جديدة [٥٤] ناويا العودة إلى اليمن ومن ثم إلى السويس.

ولما وصل إلى ظفار على ساحل بحر العرب، عاد هبوب الريح من جديد، ومن أجل تخفيف حمولة السفن فقد ألقى البحارة معظم المؤونة المخزنة [٥٥]، وجرفت الرياح الأسطول العثماني إلى الساحل الهندي بالقرب من ديو Diu، التي كانت تحت سيطرة البرتغاليين، فذهب علي ريس إلى ميناء دمن Daman في كوجرات، إلا أنه بسبب سوء الأحوال الجوية فقد هناك ثلاث سفن [٥٦]، ورحب به ملك أسد [٥٧]، حاكم دمن، ونصحه بالتوجه إلى مكان آمن مثل سورات، وترك علي ريس سفنه، ومدافعه وأسلحته أمانة عند ملك أسد [٥٨]، وهنا ترك بعض جند علي ريس الخدمة عنده، ودخلوا في خدمة ملك أسد [٥٩]، بينما توجه البقية براً لميناء سورات [٦٠]، أما علي ريس فقد أخذ مرشدا وتوجه برفقة السفن الست الباقية إلى سورات [٦١]، ومكثوا هناك بعض الوقت.

وفي سورات كانت هناك مصاعب جمة تواجه العثمانيين، منها الانفاق على

---

٥١ ـ علي ريس مرآت الممالك، ص ٢١

٥٢ ـ OZBARAN, OTTOMAN TURKS, P62

٥٣ ـ يقع هذا الميناء اليوم على الساحل الايراني، وقد أطلق عليه اسم علي ريس باسم «جاش»

٥٤ ـ علي ريس، مرآت الممالك، ص ٢٢؛ كاتب جلبي، تحفة الكبار، ص ٦٤

٥٥ ـ كاتب جلبي، تحفة الكبار، ص ٦٥؛ Orhonlu "ALI RIES",P47

٥٦ ـ المصدر السابق، نفس الصفحة.

٥٧ ـ عندما تولى السلطان أحمد شاه العرش (٩٦١ ـ ٩٦٧ هـ/ ١٥٥٣ ـ ١٥٥٩م) بعد وفاة أبيه السلطان محمود الثاني، قلد ملك أسد هذا المنصب.

٥٨ ـ علي ريس، مرآت الممالك، ص ٢٧

٥٩ ـ كاتب جلبي، تحفة الكبار، ص ٦٦

٦٠ ـ علي ريس، مرآت الممالك، ص ٢٨

٦١ ـ C.ORHONLU "ALI RIES",P47 فريدون بك، منشآت السلاطين، جـ١ استانبول، ١٢٧٤ ص ١٧ ـ ٦١٨

الجيش، ولاسيما بعد أن نفذت أموالهم (٦٢)، لذا فإن ٢٠٠ من الرماة (توفنكجي) وغيرهم خدموا في جيش السلطان أحمد سلطان كوجرات (٦٣)، وكانت السفن العثمانية في حالة يرثى لها، وغير قادرة على الابحار إلى مصر (٦٤)، وتحت ضغط هذه الظروف قرر علي ريس بيع الأسلحة والسفن الباقية معه لحاكم سورات(٦٥)، وبعد أن قبض ثمنها من رجب خان (٦٦)، حاكم سورات، قرر الذهاب برا إلى القسطنطينية، لتسليم المبلغ للحكومة (٦٧)، وخرج برفقة ٥٠ رجلا في ١ محرم ٩٦٢ هـ/ ٢٦ نوفمبر ١٥٥٤ م (٦٨)، وسار عبر الهند إلى فارس والبصرة وبغداد ووصل استانبول في رجب ٩٦٤ هـ/ مايو ١٥٥٧م بعد رحلة استغرقت أربع سنوات (٦٩)، ووصف رحلته هذه في كتاب كتبه بالعثمانية أسماه «مرآت المالك»

---

٦٢ ـ كاتب جلبي، تحفة الكبار، ص ٦٦

٦٣ ـ C.ORHONL "ALI RIES",P48

٦٤ ـ كاتب جلبي، تحفة الكبار، ص ٦٦

٦٥ ـ المصدر السابق، نفس الصفحة. يعتقد بأنه كان هناك فرق بين المنصبين كولووال وخداوند خان، وهذا ما أوقع جنكيز أورهنلو في بعض الأشكال، فكان الأول بمثابة آمر وهذا ظهر في مكانين الأول لسورات نفسها وتمثل هذا المنصب في شخصية آغا حمزة، والآخر كان في قلعة سورات، وتمثل المنصب في شخصية حسين آغا (انظر: علي ريس، مرآت المالك، ص ٢٨ ـ ٢٩، ٣٢ C. ORHONLU, "SEYDI ALI RIES", P48 N.43
أما المنصب الثاني خدواند خان فكان بمثابة حاكم، وقد أعطي هذا المنصب لخواجه صفر السلماني، وبعد وفاته في عام ٩٥٣ هـ/ ١٥٤٦م انتقل هذا المنصب لابنه رجب. (انظر:
E.D.ROSS, "PORTUGUESE IN INDIA AND ARABIA 1517 - 1537", JARS, PART I,(1922) P18
وقبيل أن يقوم علي ريس ببيع الأسلحة، أرسل السلطان العثماني سليمان القانوني رسالة لرجب خان، حاكم سورات، أخبره فيها عن امتنانه لاستلام رسالة منه التي أخبره فيها عن مغامرات علي ريس قبل وصوله إلى ميناء سورات، وتساءل السلطان فيما إذا كان رجب خان يمتلك مكانا لبناء سفن أم لا، وأضاف بأنه سيقوم بإرسال سفن كافية لمقاتلة البرتغاليين. وطلب السلطان من رجب بأن يقوم بإرسال المدافع الى مصر وإذا تعذر ذلك فعليه أن يضعها في مكان آمن لتستخدم ضد البرتغاليين. (انظر: فريدون بك، منشآت السلاطين، جـ١ ص ٦١٧ ـ ٦١٨)كما أرسل السلطان نفس الرسالة الى السلطان أحمد سلطان كوجرات (انظر: المصدر السابق، ص ٦١٨ ـ ٦١٩؛ لاحظ هنا أن العنوان قد كتب خطا إلى أحمد خان، حاكم البحرين، بدلا من أحمد شاه سلطان كوجرات، وهذا أوقع أورهنلو في خطأ حين قال بأن أحمد كان حاكما على البحرين قبل مراد شاه (انظر:
ORHOLU, "1559 BAHREYN SEFERINE AID BIR RAPOR" TD, SAYI 22, (1960), P7,N.11)

٦٦ ـ قتل رجب خان عام ٩٦٨ هـ/ ١٥٦٠م. (انظر: محي الدين العيدروسي، النور السافر عن أخبار القرن العاشر، ط١ (بيروت، ١٩٨٥) ص ٢٤١).

٦٧ ـ كاتب جلبي، تحفة الكبار، ص٦٦

٦٨ ـ المصدر السابق. نفس الصفحة؛ علي ريس، مرآت المالك، ص ٣٢؛ C. ORHONLU, "SEYDI ALI RIES", P49

٦٩ ـ كاتب جلبي، تحفة الكبار، ص٦٦

وتلقى علي ريس زيادة في راتبه بمقدار ٨٠ اقجة في اليوم. كما تلقى رفاقه أيضا ترقيات [٧٠] لما لاقوه من المصاعب ثم عين علي ريس دفتردار لتيمار في منطقة ديار بكر [٧١]. وفي ٢٧ ربيع الثاني ٦٩٧ هـ/ ٢٤ يناير ١٥٦٠م عين رئيسا على ما يعرف باسم خاص كمي (سفينة السلطان الخاصة) براتب يومي قدره ١٥٠ آقجة، ثم أعيد علي ريس قبطانا على مصر للمرة الثانية في ٢١ رجب ٩٦٧ هـ/ ١٦ إبريل ١٥٦٠م. إلا أن المنصب منح لصفر ريس، قبطان اليمن، بعد خمسة أيام، وتوفى علي ريس في ٢ جمادي الأولى ٩٧٠ هـ/ ٢٨ ديسمبر ١٥٦٢م.

رسالة السلطان سليمان لمراد ريس

قام مراد خان [٧٢]، حاكم البحرين، بإرسال رسالة للسلطان سليمان القانوني، لتقديم ولائه وإخلاصه للدولة العثمانية [٧٣] واستجابة لذلك أرسل السلطان القانوني رسالة (منشور همايون) لمراد، وعين مراد ريس سنجاق بك (أي أمير لواء) على الجزيرة.

وبما أن الرسالة المنشورة لا تحمل تاريخا [٧٤]. لذا فإنه من الضروري أولا تحديد تاريخ تقريبي للرسالة من خلال استقراء الحوادث التاريخية المتعلقة بعلاقة العثمانيين بجزيرة البحرين، عندما خرج بيري ريس الى هرمز في أواخر عام ٩٥٩هـ/ ١٥٥٢م، فقد أعطى أوامر باستيلاء على البحرين - إن أمكن - وذلك في طريقه للبصرة [٧٥]، وهذه الأوامر تدل على أن البحرين لم تكن تابعة للسيادة العثمانية في ذلك الوقت.

---

٧٠ - علي ريس، مرآت الممالك، ص ٩٨

٧١ - المصدر السابق نفس الصفحة

٧٢ - لم تعط المصادر التاريخية أي معلومات عن مراد خان أو عن كيفية وصوله للحكم.

٧٣ - أرسلت الرسالة مع خواجه شرف الدين حسن بن أيوب. انظر: فريدون بك، منشآت السلاطين، جـ١ ص ٦١٠-٦١٢

٧٤ - كانت الكتب السلطانية لا تخرج بدون تاريخ حيث كان التاريخ يكتب في آخر الرسالة بالعبارة التالية: تحريرا في ... (انظر: محمد فريدون بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق د. احسان حقي، ط٥، بيروت ١٩٨٦، ص ٢١٠ إلا أن فريدون بك يورد المراسلات بحذف التاريخ والمكان الذي كتب فيه الرسالة.

٧٥ - KOGUSLAR 888,P487,488B

أما البحار سيدي علي ريس لما أراد إعادة السفـن التي تركت في البصرة بعد حملة بيري ريـس إلى مصر، زار في طريقـه مراد ريس حـاكم البحـرين، ودار بينهما حديث وسأل علي ريس مراد عـن البرتغاليين في الخليج، كما أوضح علي ريس بأن مـراد ريـس أعطاه كنـوع مـن التقـديـر والاحترام مـاء للشرب كان الغـواصـون يخرجونه لـه من أعماق الخليج [٧٦]، وهذا يدل على أن مراد ريـس كان على علاقة حسنة مـع العثمانيين في الوقـت الذي زار فيـه علي ريس البحـرين عـام ٩٦١هـ/ ١٥٥٤م، وهذه العلاقـة الحسنة استمرت بعض الـوقت، وأخطأ صالـح أوزبران Salih Ozbaran حين قال بأن مراد ريس عين سنجـاق بك على البحرين في عام ١٥٥٩م [٧٧].

واستنادا لما ذكر، إذا أخذنا في الاعتبار ما قالـه نورنها لملكه ـ السابق الذكر ـ فإنه مـن الممكن القول بشيء من الاطمئنان بـأن تلك الرسالة قد كتبـت من قبل السلطان سليمان القانوني في عام ٩٦٠هـ/ ١٥٥٣م.

نـص الرسـالة:

كـانت معظـم الرسـائل السلطانيـة تكتب في القـرن السادس عشر بـالخط الديواني، ولا تـوجد بها علامات الترقيـم، إلا أنه لتسهيل وصول المعنـى للقارىء فقـد استحدثـت تلـك العلامـات في النص المعـاد نشره هنـا، كما أن هناك بعـض الأخطاء الامـلائية وردت في النص الأصلي، وهـذه نقلت كما هـي وصححت في الهوامش، وهذه نص الرسالة: ـ

«أما بعـد، فهذا كتـابنا الشريـف السامـى، ورسالتنـا المنيف العـالى الخاقاني،

---

٧٦ ـ على ريس، مرآت الممالك، ص١٨

٧٧ ـ S.Osbaran, Ottoman Turks,P66.

لازال نافذا في الربع المسكون بحق من نطق بالصاد والنون، أرسلناه إلى الجانب الملكي الأميري الكبيري الأكرمي الأمجدي الأفخمي الأسعدي الأعدلي الأكملي المجاهدي المرابطي، نصير الاسلام والمسلمين، ظهير الملوك والسلاطين، المختص بالمواهب السنية من قبل أمير الملل، معتمد الدولة الأمير جلال الدين مراد خان، الصاحب الحاكم يؤمئذ بولاية جزيرة البحرين، خصه اللـه تعالى بصنوف المفاخر، والوف المآثر، وزاد عزه الوافر المتكاثر، نهدي إليه سلاما جميلا، وثناء جزيلا، وننهي إلى علمه الكريم، وننبأ بأن موصل هذا الكتاب المفخم المبجل المكرم بالوجه الأجمل الخواجة شرف الدين حسن بن أيوب، زيد شرفه ووقعه، قد وصل إلى عتبتنا العلية بكتابه المرسل إلي سدتنا الجلية، فلما تمثل بمواقفنا العلي الخاقاني، واوصله إلي مقامنا الأعلى، أعلاه الله تعالى، عرض بطريق الرسالة ألوف الإخلاص، وصنوف الإختصاص، من الجانب الشريف، قائلا بأنه قاصد ورسول منه، وآت من ذلك الباب المنيف، فنظرنا إلى هذا الكتاب المستطاب، وفيما فيه، وتعلق علمنا الشريف بجميع ما اندرج في أثناء سطوره، واندمج في منشوره، وبما قاله القاصد المومى إليه وقت حضوره، فعلمنا واتضح لدينا جملة ما فيه من قواده إلي خواتمه، من إظهار أمور الإختصاص،و اشعار وفور الإختصاص، وما هو المأمول والمسئول المتعلق بما هو في يده من الإيالة، وما يسر ويبتهج بحصوله، المنتمي إلي ما يستدعيه ويرتضيه من استقرار ما كان على ما كان من أزمان آبائه وأجداده، بعد حسن القبول بعجزه وافراده وآحاده، وغير ذلك من المتمنات والمقاصد والمرامات، لتكون تلك في حومة ولايته بالأصالة، وأحاط علمنا الشريف الخسرواني بأنه قد أرسله بيد هذا الرسول الصادق في قوله المعول المقبول، معتقدا وجازما بأن الرسائل أقدام ذوي الحاجات، والوسائل مفاتيح الطلبات، ومعتمدا على منبع حرمنا، وراجيا وسيع كرمنا، وان كل من التجى إلى حرمنا لحماه حماه، ومن شاهد وجه كرمنا ومحياه حياه، ولئن بذل

المجهود على وجه المودود في خصوص الملتجي والمرتجي ومظهر الخلوص كائنا من كان، وكيف ما كان من الشيم الكريمة السلطانية، والعادة القديمة الخاقانية من قديم الزمان إلى الآن، لا سيما في حق من جوبل على فطرة الإسلام، وامتلأ قلبه بالايمان. وسلك مسلك الإخلاص، وتشبث بذيل الإختصاص، بالإرجاء والإستيمان، مما يعد من أهم المفترضات ومن الوجوه الحسان. فلما حصل في علمنا الشريف اليقين بشرف هذا التبيين، انه جدير بالعناية في هذه الأبواب، وحرى للحماية بلا ارتياب، اظهرنا في خصوصه من بذل المهمة، ومزيد العناية من العواطف العلية السلطانية، والعوارف الجلية الخاقانية، بالاسعاد فيما يرتضيه ويرتجي في حصول المراد، حيث قبلنا مأموله، وساعدنا مسئوله، ونراعيه برعاية وعناية ازيد، مما هو ملحوظ خاطره، ومكنون ضميره، إن شاء الله تعالي.

فالآن، قررنا اولا تلك الولاية المشهورة بجزيرة البحرين، المذكورة بالميراث في البنين بيده، وقلدناها له، وفوضنا إياها إليه، وشددنا أمره، ونفذنا كلامه. فرفعنا ثانيا هذا الكتاب المستطاب إلي ذلك الجناب، ورسمنا أن تكون هي بعد اليوم مستقرة في يد الأمير جلال الدين مراد خان ـ المشار إليه ـ بطريق الايالة، على مكان[٧٨]، ويتصرف هو فيها مستمرة [كذا] بالأصالة على الوجه الذي كانت هي عليه من قديم الزمان، ويصير سببا لشد العهد والوثائق، وناطقا بما تحويه في الأفاق من أن يكون تصرفه مستوعبا لزمان حيويته، ويبقى في يده وتصرفه مادام حيا وسالكا جادة السداد على ما هو حالة المعتاد، وراعيا للموعود بالوجه المودود، المستوجب لحسن الالتفات، يتنسم نسمات العنايات على حدايق مقاصده وآماله، ويترشح أمطار الحمايات على مفارق مطالبه وأحواله، إلى أن سمع[٧٩] من صوب خالق العباد نداء (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك

٧٨ـ الأفضل على ما كان.
٧٩ـ يسمع

راضية مرضية) [80] الذي هو مرسوم ومجزوم بين الخلايق في عالم الكون والفساد، فعندما سمعه بسمع الاجابة، وطار طاير روحه من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح، أخره الله تعالى، وسوقه بالفلاح والنجاح، فليقلد فيها أخوه المبجل خلف الأمراء العظام، شرف الكبراء الفخام، لازم الاكرام، ذو القدر والإحترام، حاوى الوف المفاخر، جامع صنوف المأثر، شهاب الدين خان أبو النقا، زيد علوه وسموه، وليتعوض تلك الولاية إلي تحت تصرفه في ذلك الوقت، لينصرف فيها بطريق الايالة مثل ما كان في تصرف أخيه المشار إليه بالأصالة في زمان حيويته وبقائه، كما شرح طريق استبقائه لكونه مجبولا على الوفاء في عهده واستيفاء وفائه، إلى تصرف الأقدم المستحق الذي يوجد بعده وعقبه من الأبناء الكرام، والأعقاب الفخام بجلال الدين مراد خان المشار إليه، وتعود إلى سلسلة المسلسل نسلا بعد نسل، فرعا بعد أصل، ثم فثم، إلى أن ينقرض، ويتم صانهم الله الملك الستار إلى انقراض الدهور والاعصار، وصارت تلك الايالة في ايديهم بهذا الوجه الوجيه، وتلك الطريقة المرضية، ولا يخرجوا من هذه السلسلة بالمشية الالهية، وعون الحق ومنه، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، ولازال مرسومنا هذا مطاعا إلى يوم الدين، وما أوصينا به مع الضوابط المشروحة، والشرايط المذكورة معتبرة ومرعية، ومجراة في جميع الألوان، ولا يتغير ولا يتبدل الزمان أبد الآبدين، ولا يكون فرد من جواهر اصداف الخلافة، أعني بهم الأولاد الأمجاد، والأعقاب والأنساب، ولا واحد مقلدا بامر واخافة من الوزراء والأمراء والصدور والأركان والأعيان والكبراء، وغيرهم من الاحاد ومن أرباب الآداب، وسائر النواب والحجاب، وغيرهم من أهل العساكر والأعوان، والنواصر وعامة الأعالي والأسافل، في الخارج والداخل، كائنا من كان، مانعا ودافعا كيف ما كان، ومنازعا

---

٨٠ ـ سورة الفجر، آية ٢٧ ـ ٢٨

ورافعا في هذا بوجه من الوجوه، بسبب من الأسباب، ولا يكونوا مجادلين ومخاصمين، ولا مزاحمين ومقاسمين، ولا يتعرضوا للبلاد ولا لأهاليها، وقطانها من كافة العباد، على خلاف الشرع القويم، ومخالف الطريق المستقيم، المعتاد بنوع من الأنواع، بل لا بد لهم ولكافة الأنام، من الخواص والعوام، صيانة تلك الولاية والنواحى من العاهات والدواهى، والرعاية لعامة الرعية وقطانها، والحماية لكافة البرية وسكانها، اعتقادا على أنها صارت في حكم ممالكنا، وجازما بأن أهلها كذلك، ومسالكها كمسالكنا المحمية، وما عرض من قضية تعرض المتعرضين المفسدين الكاذبين الباغين المتمردين، دمرهم الله إلي يوم الدين، المسافرين الواردين من تلك الولاية، من طريق التجار العابرين الذاهبين، ولسفاينهم ومراكبهم، وبنهب أموالهم وكسر مالهم، بل باراقة دمائهم وقطع أرجائهم، على خلاف رضائنا الشريف الخاقاني، وما يلزم ويتحتم ويجب قطع أيدي تعرضهم، بدفعهم ورفعهم، وقلعهم وقمعهم، وتدارك ضبطهم، وتدبير دفعهم وقلعهم من أهم المهمات، واتم المفترضات، فلا نرضى بالتأخير في التدارك والتدبير، ومرسومنا هذا لهذا الأمر الخطير، فلا بد على رقاب حراس الممالك ان يدفعوه، ويستعجلوا في دفعه، ويسلكوا فيه أوضح المسالك، حتى يسير عامة الرعايا وكافة البرايا، في أيام دولتنا وكنف عدالتنا، على كمال الأمن والأمان، والرفاهية والإطمينان، فإذا وقع مثل ذلك فلا بد من دفعه لكل من يقدر على دفعه، ثم اعلام المتمرد، وعرض من لا يمتنع بالمنع عن المفاسد، ولا بد أن يكون هذا عادة مستمرة، وضابطة مستقرة، وفق أمرنا إلي يوم الجزاء، إن شاء الله تعالى. ومن قصد التبديل والتحويل، وخالف وعاند في أمرنا العامل الجليل، فالله خصمه (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) [٨١] فيكون مجرما وآثما بموجب النص الكريم (فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله

٨١ ـ سورة الشعراء، آية: ٨٨ ـ ٨٩

سميع عليم)[٨٢] وينخرط في سلك الظالمين الأخسرين، الذين قال في حقهم عز من قائل (ألا لعنة الله على الظالمين) [٨٣] ومرسومنا في هذا الكتاب المستطاب، يؤكد في ذلك الباب غاية التأكيد والتمهيد، فليعلموا ذلك وليعتمدوا عليه، فلما أدى الرسول المشار إليه خدمة رسالته المفوضة إليه بلسانه، وأتمها بطريق بيانه، قارن به حسن إجازتنا الشريفة الخاقانية بالتفخيم في خصوص الرجوع بالتكريم، وحملناه بكتابنا هذا الإتمام والوف السلام، لا زالت سلامته وحسنت بالخير إعادته، ولم يزل المراسلات والمفاوضات بإهداء الرسائل المشحونة بأخبار المحبة، وإنهاء الوسائل المقرونة بإظهار الصداقة والمودة، وبإعلام عامة الأحوال المتعلقة بحفظ البلاد وانتظام العباد، وسائر جمهور الأمور المتعلقة بالسلطنة، وحراسة الممالك، وضبط المسالك، والحمد لله الملك العلام على رسوله [كذا] محمد سيد الأنام، وعلى آله العظام، وأصحابه الكرام».

محتويات الرسالة:

هناك العديد من الموضوعات التي تناولتها الرسالة:

أولا: تفيد هذه الرسالة بأن مراد خان، حاكم البحرين، قام بإرسال أحد رجاله وهو الخواجة شرف الدين حسن بن أيوب حاملا رسالة منه للسلطان سليمان القانوني، عاشر سلاطين الدولة العثمانية، يعبر فيها عن تقديم ولائه وإخلاصه للدولة العثمانية [٨٤]، وهذا هو الدافع الذي أدى إلى صدور مثل هذه الرسالة ـ موضوع البحث ـ، كما تفيد هذه الرسالة أن هناك العديد من الأخبار قد نقلها الرسول شفاهة للسلطان [٨٥].

٨٢ ـ سورة البقرة آية: ١٨١
٨٣ ـ سورة هود، آية: ١٨
٨٤ ـ يظهر هذا الكلام واضحا في عبارة: «.... معتقدا وجازما بأن الرسائل أقدام ذوي الحاجات، والوسائل ومفاتيح الطلبات، ومعتمدا على منبع حرمنا، وراجيا وسيع كرمنا وإن كل من التجأ إلى حرمنا لحماه حماه ... (انظر: فريدون بك، المصدر السابق ص ٦١٠)
٨٥ ـ المصدر السابق، ص ٦١٠، ٦١٢

ثانيا: تقول الرسالـة بعد ورود حامل الرسالة إلى استـانبول، قرر السلطان العثماني أن يعين مراد خان أميرا على جزيرة البحريـن، والجدير بالذكر أن السلطان لم يستخدم لقـب سنجاق (أي إمارة أو لواء) وإنما استخـدم لقب ولاية البحـرين، ولم يقصد السلطان هنا الولاية بمفهـومها الإداري كإحدى التقسيمات الإدارية في الدولة العثمانيـة، وإنما استخدم هذا اللفظ هنا فقـط كنوع من المبالغـة في منح مراد ريس إمارة ما، ومما يدعم هذا الـرأي أن اللقب الذي منحه السلطان لمراد خان هو الأمير (٨٦)، وهو لقب يـدل على أن صاحبه يحمل لقب بك بـاللغة العثمانية وبهذا صار مراد أميرا على منطقة أو سنجـاق ما، أما إذا كانت البحريـن ولاية بمفهومها الإداري، فما كان مراد خان يحمل لقب أمير وإنما لقب بكلر بك (أي أمير الأمراء) وهذا الأخير كـان يحمل لقـب باشـا، واللقب الأخير لم يظهـر ضمن ألقـاب مراد خـان، كما أن هنـاك وثـائق عثمانية أخـرى دلـت دلالـة واضحـة وصريحة على أن السلطان العثماني قد عين مراد سنجاق بك على جزيرة البحرين (٨٧).

كان من سياسة العثمانيين أنهم إذا فتحوا أي منطقة عنوة فإنهم يعينون حاكما مـن جانبهـم على المنطقة المفتـوحة والأمثلـة على ذلـك كثيرة من المنطقـة العربيـة كالموصل وبلاد الشـام، ومصر وبغداد والإحساء، ولتأكيد ذلك كـانت السلطات العثمانية تعين عليهـا ولاة عثمانيين وتضع حـاميات عثمانيـة في هذه المنـاطق نظـرا لأهميتها الجغرافية والاستراتيجية.

كما كان مـن عادة سلاطين الدولـة العثمانية أن يقدروا جميع مـن ينضم تحت لوائهم سلما، وذلك بتعيينهـم حكاما على مناطقهم التي يحكمـونها، ومن أمثلة ذلك تعيين السلطـان العثماني سليم الأول الشريـف بـركات على الحجـاز بعـدما أرسـل

٨٦ ـ المصدر السابق، ص٦١١
٨٧ ـ انظر على سبيل المثال مهمة دفتري رقم ٣، ص ١٣٩ وثيقة رقم ١ و ص ١٤٠ وثيقة رقم ١

الأخير ابنه أبـو نمي لتسليـم السلطان مفـاتيح الحرمين الشريفين أثنـاء تواجـده في القاهرة [٨٨]. وعندمـا دخل السلطان سليمان القانـوني مدينة بغداد عـام ٩٤١ هـ/ ١٥٣٤م، أرسل راشـد بن مقامس حـاكم البصرة[٨٩] إبنه مـانع ليعلن قبـول والده التبعية العثمانية،فعين السلطـان راشد بن مقامس حـاكماً على البصرة ، وحدث نفس الشيء مع علي بن عليان حاكم منطقة الأهوار، ولكن عندما أعلن راشد بن مقامس عصيانه على الدولة العثمانية في عام ٩٥٣ هـ/ ١٥٤٦م، أرسلت الدولة إياس باشا والي بغداد، على رأس حملة عسكـرية لردعه، فـدخل البصرة وعين بلال محمد بـاشا محافظا عليها، وبعدها تحولت البصرة إلى درجة إيالة ومنحت لبلال محمد باشا [٩٠].

وبما أن جزيرة البحرين قد دخلـت سلما تحت النفوذ العثماني فإن ذلك حال دون إقامة أي حاميات في البحرين، كما أن هناك عوائق أخرى منعت العثمانيين من إحكـام سيطـرتهم على الجزيـرة وهـذه تتخلص في العـوائق الجغـرافيـة حيـث إن البحرين جزيرة مفصولة عن شبه الجزيرة العربية، وهذا كان يتطلب إيجاد أسطول عثماني فعّال لنقـل الجنود والأسلحـة العثمانية للجزيـرة، وكانـت الدولـة العثمانية تفتقر لمثل هذا الاسطول في بدايات النصـف الثاني من القرن السادس عشر عندما بدأت القوات العثمانية تظهـر في المنطقة. كما أن قرب الجزيرة من هرمـز التي كانت قاعده البرتغاليين في الخليج العربي، جعلها حريصة على ألا تحاول أن تستفزهم، أو أن تقوم بـأي عمل قـد يفسره البرتغاليـون على أنه مـوجه ضـدهم، وهـذا جعلها تتحرك في المنطقـة بحذر شـديد، ولاسيما أن البرتغاليين كـانوا يمتلكـون أسطولا بحريا قويا.

ثالثـا: نظـم السلطان العثماني طـريقه إدارة إمـارة البحريـن، فقد صرحـت

٨٨ ـ قطب الدين النهروالي، البرق اليماني في الفتح العثماني، تحقيق حمد الجاسر، (الرياض، ١٩٦٧)، ص٢٤
٨٩ ـ ابن القملاس، ولاة البصرة ومتسلموها ١٤ ـ ١٣٣٣ هـ (القاهرة، ١٩٦١)ص ٥٥
٩٠ ـ OZBARAN, OTTOMAN TURKS, P33

الرسالـة بأن مراد يتصرف بإمارة البحـرين، وتبقى في يده طيلة فترة حيـاته، أما في حالة وفـاته، فتنتقل الإمارة إلى أخيه شهـاب الدين أبو النقـا، وتستمر في يده لحين وفاته، عندها تنتقل الإمارة إلى إبن مراد خـان، وتذهب بعده إلى إبن شهاب الدين وهكذا نسلا بعد نسل [٩١].

وبما أن هذه هـي الرسالة الـوحيدة التي تحدث فيها السلطـان العثماني حول إدارة منطقة ما دخلـت حديثا تحت النفوذ العثماني، لذا فإنـه من الممكن الافتراض بأن هذا كـان دأب السلاطين العثمانيين مع المناطق الجديدة التـي تدخل سلما تحت النفـوذ العثماني، لأنه إذا لم يعتـد السلطـان ذلـك لما أصر على هذه النقطـة في هـذه الرسالـة الأولى من نوعها لحاكـم البحرين، وربما أراد السلطان مـن ذلك الحد من قيام نـزاعات داخلية بين البيـت الحاكم في جزيـرة البحرين، لكـي لا يخدش ذلك أمن واستقـرار الرعايـا، وحتى لا يتخذ البرتغـاليون مـن ذلك ذريعة للتـدخل في شؤون البحرين لصالح أحد المتنازعين على السلطة.

رابعا: يوصي السلطان رجال الحكم في جزيرة البحرين بضرورة التفاهم في كل شيء، وحذرهم من الفرقة والتخاصم، ومن التعرض للبلاد وللأهالي، وبعدم أخذ أي شيء منهـم يخالف ما شرع بـه الشرع الحنيف، وطلب مـن كبار الموظفين ضرورة صيانة الجزيـرة من الأخطار، ورعاية الرعيـة وحمايتهم مما يحدق بهم، لأنها صارت من ممالك السلطان، وأن أهلها قد دخلوا في رعايته [٩٢].

خـامسـا: حـذر السلطـان مـن أعمال السرقـة التـي كـان يقـوم بها بعـض المفسدين، الـذين كانوا يتعرضـون للتجـار العابرين، ولسفنهم العـاملة في المنطقة، ويستولون على أمـوالهم وبضاعتهم، وطالب الموظفين بقطع أيـديهم، ومنعهم من

٩١ ـ فريدون بك، المصدر السابق، ص٦١١
٩٢ ـ المصدر السابق، ص ٦١١ ـ ٦١٢

القيام بمثـل تلك الأعمال، وقال بأن منـع ذلك من أهم المهمات والـواجبات، ولا ينبغي التـأخير في تطبيق المرسوم على أولئـك المفسدين، مـن أجل أن يكون عـامة الرعـايا في أيـام دولة السلطـان في كنف عـدالته، وعلى كمال الأمـن والأمان، ولا يخدش اطمئنانهم وأمانهم أي شيء مهما صغر أو كبر [٩٣].

سادسا: شدد السلطان على تنفيذ ما جاء في هـذا المرسوم، وحذر من يخالفه بأنه ينخـرط في سلك الظالمين، الذين يسمعـون ما يقال لهم ثم يخالفـونه، وأولئك يلعنهم الله ويخرجهم من رحمته [٩٤].

سابعا: وفي آخر الرسالة أخبر السلطان بأنـه بعد أن سمع الأخبار التي جاء بها الرسول، أعطاه هـذه الرسالة الجوابية، ليحملها الى سيـده مراد خان، وأوصى السلطان في آخـر مرسـومه بضرورة استمـرار المراسلة لنقـل الأخبار إليـه، ولأنها وسيلـة إظهـار الصداقـة والمودة، ولإعـلامـه بعمـوم الأحـوال المتعلقة بـالمنطقـة ورعايـاها، وختـم السلطان رسـالته بحمـد الله والصـلاة والسلام على نبيـه وآله العظام وصحبه الكرام [٩٥].

---

٩٣ ـ المصدر السابق، ص ٦١٢
٩٤ ـ فريدون بك، المصدر السابق، ص٦١٢
٩٥ ـ المصدر السابق، ص ٦١٢